بين القول والعمل

لحضرة الأستاذ الشيخ سليمان نوار

شيخ معهد القاهرة

أقوالنا وأعمالنا بمرأى ومسمع ، إن من أقوالنا لأقوال الإصلاحية الاجتماعية الخطيرة ، تلكم الأقوال التى دوت فى أسماع الزمان ، وتضاءلت بإزائها أقوال كثير من زعماء الأمم وقادة الشعوب ، أقوال معجبة مدهشة سجلها على أنفسهم المسئولون وغير المسئولين . فى أسلوب لا يرتاب سامعه فى أنه أسلوب الإيمان والإخلاص ، ومنطق العقيدة والخلق ، وصيحة العزم والحزم ، ثم ماذا بعد هذا ؟ إما أن تكون تلك الأقوال أصواتا ذهبت فى أجواز الفضاء ، فلم يعمل أصحابها شيئا مما سجلوه على أنفسهم فى تلك الأقوال ، بل ولا هم حاولوا أن يعملوا ، وتلك المحاولة أقل درجات الصدق فى الأقوال ، وإما أن تشفع تلكم الأقوال الإصلاحية العظيمة بأعمال ضعيفة مضطربة لا ثبات لها ولا استقرار ، وربما ألح بها الضعف والاضطراب وعبثت بها الأهواء حتى درست فيما درس ، وألم بها ما ألم بأمثالها من العفاء والفناء . ذلك لأن هذه الأعمال لم تتأسس على الإخلاص ، ولم تتركز على دعائم القوة والثبات ، وهى الغيرة على العمل والمثابرة والاصطبار .

يستطيع كل واحد منا أن يرجع الى تلك الأقوال الاصلاحية الخطيرة التى أرسلتها أفواه المنابر والمجتمعات ، ووعتها آذان الوجود ، ويستطيع بعد ذلك أن يزن هذه الأقوال بموازين الصدق والإخلاص والعزم والتنفيذ ، ولا أرتاب بعد هذا فى أن كل واحد منا سيسأل نفسه لا محالة هذا السؤال : أين أعمالنا من أقوالنا ؟ وأين قلوبنا وعزائمنا من ألسنتنا وأفواهنا ؟ ولعلنا ننتفع بأن نسأل أنفسنا هذا السؤال .

رجوعا إلى الماضى القريب لنستعرض قليلا من أقوال المسئولين فى مواقف عظيمة مشهودة ، مواقف الإصلاح الاجتماعى — ويكفينا أن نرجع الى الأقوال التى قد تدفقت فى ناحية واحدة فقط من نواحى ذلك الإصلاح — هى ناحية الإصلاح الاقتصادى .

من ذلك إصلاح الأراضى — الأخذ بيد الفلاح — إصلاح مسكنه — توفير ثروته — تصريف حاصلاته إصلاح حاله الصحى والخلقى والاجتماعى بوجه عام وقفة قصيرة عند تلك التصريحات الهامة ، ثم نظرة بعد ذلك إلى ضعف الأراضى الزراعية — إلى الفلاح وفقره — إلى كساد حاصلاته — إلى ملابسه الخلقة — إلى مسكنه القذر — الى حالته الصحية

والخلقية المحزنة ، نظرة إليه فى جميع أحواله التعسة المؤلمة ولا أريد حاله فى خصوص وقتنا هذا . فحالة العالمية قسوتها وحكمها وشذوذها المعم . ولكنى أريد حاله فى الماضى وقبل هذه الكارثة العالمية الحاضرة ، فى ذلك الماضى القريب الذى طبقت فيه صيحاتنا الإصلاحية جميع الآفاق . لا ريب أن حال الفلاح كان سيئا ولم يزل سيئا إلى هذا الحين . ولا أرتاب فى أنه لم ينل قسطا ولو يسيرا من تلكم التصريحات المسئولة ، وهذا ما أعرفه . وكم كنت أود وما زلت أود أن أكون مخطئا فى تقديرى ، فأسمع صيحة من صيحات الحق تقول : لا لا ! إن الفلاح قد نال .

ستقول إننا عاجزون عن تنفيذ الوجوه الإصلاحية للفلاح ، ولغير الفلاح فى هذا الوقت الذى نخشى ألا يبقى على ما نحن فيه فى شتى النواحى والجهات .

وهذا اعتذار إن يسمع الآن فلا يسمع عن الماضى . وإلا فما الذى أعجزنا عن التنفيذ إذ ذاك ؟ ما الذى أعجزنا عن إصلاح حال الفلاح والأخذ بيده فى جميع شؤونه حينما كان الرخاء العالمى ، والطمأنينة العامة ، والسلام والأمن الشاملان تلقى ظلالها الوارفة على معظم أقطار الدنيا ، على جميع الطبقات والهيئات ما عدا مثل ذلك الفلاح ؟

الفلاح اليوم هو الفلاح أمس ، وشقاؤه أمس هو شقاؤه اليوم ، والأقوال والأعمال اليوم هى الأقوال والأعمال أمس ، ولم نر تبدلا يذكر فيما ألفناه وفيما عرفناه .

هذا وصف قيل لبعض أقوالنا وأعمالنا التى تتصل بناحية واحدة من نواحى الاقتصاد . فأما الأقوال السياسية والاستقلالية التى كانت ولم تزل تتدفق من أفواه جريئة كأنها عقائد القلوب صاغتها البلاغة أقوالا ، ونشرتها على صفحات الأثير مبدأ وتضحية وإيمانا ، هدفها نيل وأسمى الحريات العالمية ، والوصول إلى قمة العزة القومية والاجتماعية . فتلك خطب ومقالات ورسائل ومحاضرات صاغتها الحزبية السياسية ودبجتها الأهواء الشخصية ، تبدأ بحديث الوطنية الهادئة التى تؤكد استعدادها للتضحية بالأرواح والأموال وتتجه إلى وجهة واحدة هى الصالح العام . ثم تنتهى تلكم الخطب والمقالات ، وهاتيكم الرسائل والمحاضرات عند وصول الساسة المقاويل إلى غرض من أغراض الدنيا الحقيرة كما تتلاشى حينما تتلاقى عند المناصب الزائلة والمراكز التى لا تدوم — مبادئ أو شبه مبادئ تقال وتنشر ، وتختلف وتأتلف ، وتتخاصم وتتصادق ، ثم تتحطم عند حطام الدنيا وعرضها الحقير الزائل ! ما هذا ؟

كأنى ببعض هؤلاء الساسة يحتقر العقلية الاجتماعية ولا يكترث بالمسئولية الخلقية ، فإن صح هذا فعلى هذه العقلية الاجتماعية أن تغضب لهذا الاحتقار ، وأن تعالج تغيير هذا الخال السيء بمحاسبتها المسئولين عن أقوالهم ، وبتدقيقها فى ذلك الحساب .

ترون أيها القراء الكرام أن الأقوال السياسية الاستقلالية والقومية قوية جدا في بلدنا هذا في جميع المحافل والأندية ، في جميع المناسبات . أما الأعمال إذا قيست بتلك الأقوال فحالها ، كما ترون ، ضعف واضطراب والتواء وانحراف ، أو لف ودوران ، ثم اتجاه بعد ذلك إلى تحقيق الأغراض والأهواء بدون نظر إلى ما ينجم عن ذلك من الفساد العام ومن التحلل والفناء .

لن تفلح أمة يكثر فيها القائلون الذين لا يعملون بما يقولون ، فكيف بأمة يكثر فيها العاملون بعكس ما يقولون ؟

الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، علم أحوال القائلين في هذه الحياة . وأن منهم من يقول ولا يفعل ، وأن منهم من يفعل عكس ما يقول ، فأنزل في كل من القسمين آيات من كتابه الحكيم ، بانت تلك الآيات عن أحوال هؤلاء القائلين ، وكشفت عن أعراضهم ، وفضحت نواياهم ، وأنذرت بعضهم بجهنم وما بعد جهنم من عذاب .

نزل فيمن يقول ولا يفعل ما يقول قول الله تبارك وتعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۞

وفي هذه الآية كما ترون عبرة اجتماعية عظيمة ، ودعوة إلى فضيلة لها خطرها في كرامة الاجتماع وشرفه . يسأل الله الناس في هذه الآية سؤال تحبيز وتقريع ، يقول لهم : أي سبب يدعوكم إلى أن تقولوا مالا تفعلون ؟ ويبين لهم في إلزام حاسم أنه ليس هناك من سبب مطلقا يبرر أن يقول الإنسان ما لا يفعل ، ما دام للقول معنى وللصدق قيمة ، وللخلق تقدير واعتبار . ذلك أنه لا يبرر القول إلا اعتزام العمل بمعناه ، والأخذ في تنفيذ مقتضاه . وأنه ليس وراء التنفيذ والعمل من سبب آخر يمكن أن يستند إليه منطق الإخلاص ، وتعتمد عليه كلمة الصدق . فأما منطق النفاق — وهو الداء الاجتماعي العضال — فله دواعية الحقيرة وهو كدواعيه من أشد الأمور مقتا عند الله ، ولا يعقل مع مقت الله أن يحسن حال أو يستقر نظام .

تدعونا الآية الكريمة إلى أن نفكر في الكلمة قبل إلقائها ، فان المرء حر قبل أن يتكلم فاذا تكلم كان أسير كلمته ، فان كان عازما على أن يحقق ما يقول تكلم ولا تثريب عليه . مادام الوفاء قصده ، ثم هو لا يألو جهدا بعد ذلك في تنفيذ ما قال ، وإلا فليمسك لسانه ، ولا يرخ

له عنانه ، وفى كل من الحالين الفضيلة والنسل والكرامة والجادة . فأما قول بلا اعتزام ولا تنفيذ فمنشؤه ضعف الخلق ورداءة الطبع والاستهتار . وأما من يفعل عكس ما يقول فقد أنزل الله فيه الآيات :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۞ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۞

هذا صنف خطر من القوالين . إذا تكلم يفيض لسانه بالغيرة على الإصلاح ، والنزوع إلى الخير العام ، منطقه فى إصلاح الشؤون الاجتماعية والسياسية جميل رائع ساحر . ذلك قول الله يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، وعمله شر مستطار ، يخادع الناس بسحر بيانه ، ثم يجترئ على الله فى غضون هذا الخداع فيقول : الله شهيدى على أن ما فى قلبى مطابق لما نطق به لسانى ، وإنه الإخلاص للناس وحب الخير لهم ، ولو انى وليت أمرهم لكانت ولايتى عليهم أمنا ورخاء وعدلا ورحمة .

فاذا أتيح له أن يلى أمر الناس ، وظفر بأربه ظهرت صورته الحقيقية ، فأمعن فى طرق الضلال ، وتفنن فى ضروب الفتن ، حتى أتى على الأخضر واليابس . ذلك قول الله جل وعلا :

" وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ "

وهل بعد هذا إلا أن يختل النظام وتسود الفوضى ويستشرى الفساد ؟ مثل هذا الساحر المفسد إذا قيل له اتق الله وارجع عما أنت فيه من بغى وإفساد ، واذكر أنك إنما وليت لتصلح ، وأنك أشهدت الله على أنك لا تضمر للناس إلا الخير والإصلاح ، أحفظته النصيحة فزاد إثمه وإفساده ، وأبى عليه اعتزازه بسلطانه إلا أن يبالغ فى الضلال .

ذلك أخطر أنواع المنافقين ، وأشدهم فتكا وتمزيقا لكيان الاجتماع . إذا كثرت أمثاله فى أمة ذلت بعد عزة ، وافتقرت بعد غنى ، وأفلست بعد يسار ، وسيطرت عليها أطماع أجنبية ، لا تبقى ولا تذر .

هذا أيها المستمعون الكرام بعض ما تشير إليه الآيات الكريمة من عظات وعبر . ومنها نعلم أن الناس أقسام : قائلون خداعون يعملون ضد ما يقولون ، و يفسدون بعد أن يقولوا إننا مصلحون ، وهؤلاء إن أفلتوا من عقاب الله فى الدنيا — ولا إخالهم يفلتون — فعقابهم فى الآخرة حتم لا ريب فيه . وقائلون لا يعملون بما يقولون ، وخطرهم كذلك على المجتمع عظيم . وقائلون يعملون بقدر ما يقولون ، أو يعملون كثيرا ولا يتحدثون عن أعمالهم إلا إذا اضطروا إلى الحديث لغرض من الأغراض السامية . وهذا القسم الثالث هو الذى يدعو إليه القرآن لأنه عماد الاجتماع الصحيح فى كل زمان . وقد بين القرآن وفصل ووصف كل شؤون الدنيا والدين ، ورسم لنا أسمى الخطط الاجتماعية والتشريعية والتهذيبية . فهل آن للناس أن يرجعوا إليه فى كل شؤون الحياة ؟ فى التشريع ، فى الاجتماع ، فى الأخلاق وفى الآداب ؟

فإلى الأخذ بتعاليم القرآن أيها المسلمون . و إلى العمل الصالح النافع أيها المؤمنون .

" وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ " .

والسلام عليكم ورحمة الله .

سليمان نوار